

الشجرة السوداء من العجين
الأيض ...

كان خطيب الكنيسة ،
قصيراً لا هزيبلاً ولا بديناً ،
أصفر اللون من طول ما احترق
دمه بالتفكير والعبادة ، دميم
الوجه في تقاطيعه ، خفيف
الظل في مجموعته خفة ظاهرة
الأثر في طاعة أتباعه ومريديه
من كل طبقة في المجتمع . كان
يشوى الأغنياء شيئاً على السفود
ويفرى جلودهم ويؤنبهم لجشعهم
وأثرهم وطمعهم فيما ليس لهم على
قلته ، وعدم قناعتهم بما بين أيديهم
على كثرتهم . ولكنهم كانوا يحبونه
ويوقرونه لا خوفاً ولا رهبة ،
ولكن لخفة ظله وحسن تعبيره .
ثم ينحى على المشاق بالألعة ،
فيرسم لهم عاطفة الغرام في صورة
الأفاعي اللاذعة ، ويبغض إليهم
الغزل والرقص والخلوة والمعاقرة ،
وينذرهم بعذاب النار الذي أصاب
ياولوف وفرنشيسكا ؛ ولكنهم كانوا
يؤلّهونه ، ويهمسون فيما بينهم أن
جهله بالغرام ، وحرمانه ملاذات
العشق المحرم أو المحلل يوحيان
إليه تلك الحملات المنكرة على
رعايا الزهرة وأهداف كوييد ١١
فياله من تعليل ١١

الموعظة الاخيرة

لإدوار كاترمير

بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة

تصريف بالقصة

في الأدب العالمي سوابق نادرة :
« تاييس » لأناطول فرانس ،
و « الأب سرج » لنولستوي
و « مطر » لسومرست موغام .
وفي كل واحدة منها يحاول البطل
اصلاح امرأة مذنبه فتسحب إلى الهاوية
وقد تنجو هي فتصير قديسة أو تنفوز
بغيرها . وفي هذه القصة الصغيرة
يصف المؤلف بيئة معينة ويضرب على
نقمة جديدة ، وهي حيرة المصلح
حياله فساد المجتمع . وتقلب الرذيلة
أحياناً على الخير ولو في ظاهر الأمور .
وفي الأدب العربي الصوفي قصة
ذي النون المصري ورابعة العدوية
واسكنها مبهمة ، ولم توحد حوادتها
في نسق واحد ، وقد رووا أنه جذبها
في مصر والتقى بها في مكة فلم يعرفها
لشدة ما غمرها من حالة الرضى . ولا
عجب إذا تشابه الموضوع فإن النفس
الانسانية واحدة في كل العصور
والأمكنة ، وكما قيل إن تاييس علم على
محظية عاشت فعلاً في مصر ، فإن
السيدة العدوية أشعاراً كثيرة في
تمجيد الاله تجمع بينها وبين القديسة
تبريزا في التفاني والمحبة البالغة ...

من لم يعرف الأب أرمان
جيميه ، واعظ كنيسة شاريتيه
بشارع بواساك ، بحى بيراش ،
أغنى أحياء ليون وأجلها وأهدئها
لم يعرف أعظم وعظما وأبلغهم ،
وأنفذهم إلى أعماق النفوس ...
كانت خطبه المنبرية تفوق المد
والحصر ، متنوعة ، لم يطرق أثناء
حياته الدينية موضوعاً واحداً
مرتين ، لأن حياة الروح لديه
أغنى من أية حياة سواها ،
فابتلعت عالم المادة وهضمته ،
واحتوت الكون وطوت الدنيا
طى السجل للكتاب ، ثم أخذت
تجלו الحقائق بعقل جبار ومعان
خلاية ، وجل محبوكة ، وألفاظ
براقة ؛ فيسجر أنفوس مستمعيه ،
ويستميل قلوبهم بعد أن يسكرهم
برحيق وعظه ، فيستل من حنايا
صلوعهم عوامل الشر الكامنة ،
كما تستل العجوز الجبيرة

العالم ومن ورائها « السلطة الرمادية » المبهمة ...
ويقرأ الأب جيميه أقوال خصومه ، ويأق عليها
نظرة سخرية ويمتسم ...

وكانت مدينة ليون تزخر بمئات الألوف من
الرجال والنساء ، في مستقبل العمر ، وفي ريمان الجمال ،
وتعوج بألوان الهوى والفتون .. وقد اشتهرت
فتياتها برشافة القدود وجاذبية الروح ، ووحى
العيون . وكانت كنيسة « لشاريتيه » مفتوحة
الأبواب ، مطروقة من كل قاصد وقاصدة ، مُعدة
الهياكل والأعراف لكل عابد وعابدة ... وقد وقع
اختيار الأسقف كايمير دي لوزانج (وهو أحد النبلاء
الذين فضلوا مسوح الرهبان على معاطف الأغنياء
من أجداده) على الأب جيميه ليتلقى اعتراف المذنبين
والمذنبات ، ولا سيما العذارى اللواتي رزقن بشمرات
العشق المحرم ، وألقت بهم أيدي الأقدار على سُرر
مستشفى لشاريتيه الملحق بالكنيسة ، وكبار الجناة
من طبقة الممولين الذي زوروا ودلسوا واحتلوا
واختلسوا وسلبوا أموالاً لا طاقة لهم بادخارها ،
أو اعتدوا على أعراض لا ذنب لدويها إلا ما حَبَسَتْهم
به الطبيعة من جمال وفتنة ، وما سلبتهم إياه من قوة
لدفع الأذى عن كنوز المحاسن وودائع الفضيلة ،
فسلحتهم بالنفائس ونزعت منهم قدرة المقاومة

وكان الأب جيميه يعاني الأمرين من عيشة
الجفاف في صومعته ، ولكنه مدرع النفس بالجلال
والسكال واحتقار الدنيا وشهواتها ، وقد أنضجت
قلبه تجارب الحياة التي رأى أثرها في آلام الآخرين
وهومهم ..

وأحرقت نزوات نفسه نار العبادة الدائمة ، فندا
يسير بين الخلوة والمعبد ، والملجأ والسجن والمستشفى ،

وحقى الفقراء والأجراء والموزين من الطبقات
النازلة ، لم ينجوا من سهامه الصائبة . فها هم فريق
الذائقين الساخطين الصاخبين الذين يعترضون
ويعترضون ، وينضبون كالأطفال على ما قسمته
العناية لهم ، أترام يحاربون الأقدار ، أو يشورون
على القوة الخالقة ؟ أو اتقون أنتم بسعادة المحسودين
حتى تنسوا عاطفة الرضى وفضيلة القناعة ؟ ليس في
الامكان أبدع مما كان : أيها الثائرون النوكي ، ولو
اطلع أحدكم على الغيب لاخترار الواقع . إن الأغنياء
يسرفون على أنفسهم في شهواتهم ، ويبذرون أموالهم
في مغريات النفوس من طعام وشراب وقمار ، وإن
« محدثي النعم »^(١) (نوغوريش) يشعرون بالأسف
على أيام فقرهم ، فتى سبها الفرصة لأنسال آدم أن
يستلوا من نفوسهم الطمع وحب الذات ليعيشوا
كما عاش أجدادهم في عصر الذهب ، عصر الرخاء
والقناعة والحب المطلق ؟ . وكانت جريدة « نوفيل
دي رون » لسان حال الفاتكان ، تنشر خطب الأب
جيميه وتذيعها في أنحاء الولاية الوسطى^(٢) فتد
عليها « ليون ريبيلكان » صدى صوت الأحرار
والتطرفين والاشتراكيين والملاحدة ، ويشير رئيس
محررها موسيو توزيه من طرف خفي إلى « نفاق
الكليروس » وتدخلهم فيما لا يمنهم ، وسخطهم
على سائر الطبقات والمعتقدات ، حتى لا يرضهم
إلا « السكلمكة المغنمة » التي تريد أن تحكم

(١) هؤلاء النوفوريش نشأوا بعد الحرب وكوموا
التروات الطائلة وهم مضرب الأمثال في اليسر وسوء الخلق
واسمهم واحد في كل المقاطعات

(٢) مقاطعة الزون عاصمتها ليون الشهيرة بفناها وجمالها
وسلطة الكهنوت ومعامل الحرير

وهو الذي لم يتذوقه وإن تذوق الآلام التي تركها آثاره ، وكان بعد أن يختم مطافه على المذارى والولدات ويتلقى من قلوبهن الجريحة وأفواههن المعذبة أحاديث الهوى والحجر والقطيعة ، بمد الغواية والوصل ، يخرج مُبِلِل الفكر ، فريسة للهواجس يتلقفه سوء الظن ، وتعبث به السويداء ، ولكن أحداً لم يتخيل ولم يهيم أن ثقة الواعظ المتين الخلق القوى الإرادة تزعزعت في نفسه أو في رسالته القدسية ، فقد عهدوه كالطود الراسخ

في صبيحة ليلة مطيرة غاب فيها القمر وتوارت النجوم وراء السحب المتكاثفة ، عثر عمال النظافة بجثة عارية لرجل في حدود الكهولة ، وكانت راحمة الخمر تفوح من شذقيه المفتوحين ولسانه البارز ، وكانت عيناها جاحظتين كأنه يرى ، في البرهة القصيرة التي هي بين الحياة والموت ، منظرأ بشعاً أو شبحاً خيفاً ، وإحدى يديه قابضة على سُرته ، وقد تقلصت عضلات اليد الأخرى والتوت أناملها ، فهل تشير إلى نصير يدنو من الفريسة في اللحظة الأخيرة أو تهيم بأشتباك الأصابع لتدفع الخطر الداهم ؟

بهت عمال النظافة ، ووقفوا يتأملون ذلك الوضع الأليم لتلك الجثة المنطرحة على الرخام ، وكأن الروح غادرتها في تردد وألم وخجل ... ولم يعلموا لمن كان هذا الوعاء الأرضي الذي أبي نازعوه أن يواروا سواته ، وقبلوا أن يجعلوها عرضة للأنظار ؛ ليس في العالم شيء أدعى للحسرة والروعة من جثة منطرحة على مقروعة الطريق في وضع غريب . إنها لا تثير الضحك ولا البكاء ، ولا تبعث السلوى أو اللوعة ولا تؤدي الموعظة الأليمة ، حتى ولو كانت

وله تهديدات تشق الصخر ، ولا يسمع لها صوت ، وبكاء بدموع حارة بغير نشيج ، وقد آلى على نفسه ألا يفتح قلبه المقعم بالحسرات والفجائع والآلام ، إلا لمعبوده وربّه ، فيشمر وهو يسمع الاعتراف تلوى الاعتراف ، كأنه مسؤول بذاته عن ذنوب الناس جميعاً ، لأنه أمسى وسيلتهم الوحيدة للغفران ...

كان الأب جيميه في نهاية المقعد الرابع ، وما عرف النساء قط ، ولعله لا يذكر أمّه التي ولدته ، فقد انتزع منها انتزاعاً ، ليتلقى دروس البلاغة واللاهوت ، قبل أن يحذق التاريخ والرياضيات ، لأن أباه وهبه للرب ، وسرعان ما وفي بتذره ، وسلمه لعشيرة الرهبان ، في تلك البمثة الأفريقية ، التي أطلق عليها اسم القارة السوداء لكثرة من هاجر من بينها ورسّلها في سبيل هدى الوثنيين إلى الطريق القويم

فكان الأب جيميه يعيش في سجن صومته ، وفي سجن أضيّق من وصايا الدين والخلق ، ولكنه سجين يقظ للدهر ، يحصى كل لحظة ، ويحسب كل ثانية ، وبعد على نفسه الأنفاس . فعرف في بقظته المحتومة قيمة الخير والشر في خلق الرجال ، وأن المنافقين يفوزون في هذه الدنيا باسم الفضائل ، وأن معظم الجرائم تقترب وراء صور وتهاويل من الأخلاق . فكان يقول : « لا يدخل في واجبي أن أصلح العالم ، وما على إلا أن أخفف من ويلاته ما استطعت » ومذحكت عليه رسالته العليا أن يتصل بالنساء ، صمم على ألا يخوض في حديث يتصل بالحب . ونفسه تحدّثه بعد أن رأى من تعذيب الجسد أنه قد بنضت إليه ملذات الجسد بنضاً لا رجوع بعده ، وكفر بحب الجنس كفرأ لا إيمان وراه ،

نفوسهن كالفقدور التي تهدر بالقلبان ، ووجوههن كالسنانين النظرة النامية على فوهة البركان ...

كانت الساعة التاسعة إلا بضع دقائق ، عندما بلغ القاضي جيرار بوتليغان موضع الجثة وهو « مكان الواقعة » بتعبير المختصين ، يتبعه كاتب التحقيق لوسيان . وكان شاباً في الثلاثين من عمره ، مجذوع الأنف من الولادة ، أحمر الوجه ، شديد الطاعة لرئيسه من طول ما تلقى أوامره ونواهيه ، حتى لقد أمسى كالطية النول ، وكان هادئ الطبع موفور الكرامة في ظاهره . أما القاضي بوتليغان فشدید الدكاء ، طويل التجربة ، عميق التفكير ، لا يترك شيئاً قل أو جل لحكم المصادفات ، ولا يمرض عن اقتراض ، ولا يستهين ببارقة أمل وإن ضلّت في رفع الفئاع عن وجه الحقيقة ، التي قد تتبرقع أحياناً ، وتسفر حيناً !

عند ما رفع الشرطي (جروبونوم) رئيس الخدمة الليلية في مقر بوليس ساحة بلكور ، ذيل الرداء الذي كان يستر وجه القتل ، وأطل القاضي وكتبه عليه وأطالا النظر ، رفع لوسيان بذراعيه إلى أذنيه ، ومال برأسه من اليمين إلى اليسار ، ثم صرخ من أعماق صدره « آ غ ! » أما القاضي فقد صوب النظر ، ثم التفت إلى لوسيان وقال له :

— هل عرفته أنت ، كما لم أعرفه أنا ؟

فسكت لوسيان سكوتاً عميقاً ، فهز القاضي ذراعيه ، حتى أزلها جميعاً من وراء أذنيه ، وأعاد السؤال على كاتبه فأجاب :

— كلا ! كلا ! ياسيدي القاضي لم أعرفه ألبتة !

جثة أبلغ الواعظين ! بل تنير الدهشة ثم الروعة فالاشمئزاز فالغيظ ، ليس أدعى إلى الخلق من صورة الإنسان الجسدية معروضة للإنتظار في حالة العجز المطلق عن النطق والحركة ، ولذا يسرع الأحياء إلى دفن الوقي لئلا يفقدوا ثقتهم بأنفسهم ، وتهبط حرارة شجاعتهم إلى درك الجليد الذي لا صعود بعده جاء الشرط ، وسترُوا وجه الرجل الطريح ، ولكن بعد أن وقعت عليه الأبصار ووطأه النظارة بأعينهم وهي أقسى في بعض الأحيان من وطء الأقدام والنعال ... الحى الذي فقد الحياء ولم يفقد الحياة ينظر إلى الميت نظرة وحة فاجرة ، يعجز عن وصفها أفصح الألسنة ، كبرياء يمازجها شعور الفرح بالنجاة ! كان خيراً للرحمة والفضيلة والكرامة الإنسانية أن تحمل الجثة بأقصى سرعة إلى أقصى مكان ، ولكن رأى المحققون والشرط والأطباء أنه خير للحقيقة والعدل أن تبقى أطول فترة مستطاعة بأدنى موضع من مراقدها فلعله مصرعها والمكان الذي لقي صاحبها فيه حتفه حقيقة أو حكماً . فليس من المستحيل أن يكون روح القتل قد فارق جسده في أقصى المدينة شرقاً أو غرباً ، وإن القاتل الماكر اصطنع حيلة النقل تضليلاً للباحثين ؛ وأن شوارع ليون في الليل لتنتطوين على أسرار أغرب وخفايا أروع من أسرار باريس وخفاياها ، لأنها مدينة مقفلة الأبواب والنوافذ مكتمة القلوب والأفواه أيضاً ، مدينة مسكونة بالربان ، كما تسكن القصور العتيقة بالأرواح ، ومأهولة بالجناة وحمة الغموض والخفاء أكثر مما أهت بالعمال في كل صنعة وفن . نساؤها على أكبر جانب من الجمال ، والخلاعة والفتنة ، والدهاء والملاينة ، والسهولة التي تسبقها مدهانة ومخاتلة ،

حكمة الحى بل أشد ؛ ولنا وجب الكف عن شق جثته

س - حتى في حالة الوفاة الجنائية كالتقتل أو الانتحار أو التسميم ؟

ج - لا يوجد نص صريح ، ولكن أمر الكنيسة بمعدل النص الصريح

س - (من قاضى التحقيق) في شروح سالتندريه التولوزى قاعدة ثابتة ، وهى أنه إذا ظهرت مصلحة

راجحة في تشريح الجثة كإثبات حق القتل قبل التهم أو تبرئة متهم من تبعة الجريمة باسم فيجوز التشريح ، وفي زمن سالتندريه التولوزى (وهو القرن الخامس عشر) لم تكن صناعة الجراحة تقدمت كزمتنا هذا

ج - هناك حالة السم ، أو ابتلاع القتل قبيل موته جوهرة ثمينة ، وهما حالتان نص عليهما سالتندريه

المشار إليه في سؤالكم وليست هذه منهما وهنا كتب لوسيان كلمات في بطاقة ، وعرضها للنظر

القاضى ، فنظر إليه شرراً مرة أخرى ، ورفع يده إلى جبينه وطوى الورقة ودسها في جيبه ، ثم التفت

إلى الأب كليمان جوزيه وقال له :

س - إن أمر الكنيسة محترم كالنص الصريح وإن كان قانون الفصل بينها وبين الدولة الصادر

في ١٤ يونيو سنة ١٩٠٣ قد حظر عليها التدخل في أعمال السلطات الثلاث ، وأنتم لم تثبتوا حتى

الساعة أن القتل كان تابعاً لكم من قريب أو بعيد وإلى أن تثبتوا تلك التبعية المدعاة ، فللسلطة القضائية

أن تتناول التحقيق بمخافيره ومنها الأمر بتشريح الجثة لمعرفة سبب الوفاة

ج - (مندوب الكنيسة) إنكم تخرجون

- ولم صرخت إذن صرخة الرعب والفرع ؟

- لأن الصورة مرعبة مفزعة ، ولم أرقط

قتلاً يخفى عورته بيده ويشير إشارة الخطيب باليد الأخرى ! فنظر القاضى إلى كاتبه نظرة شررة ، ثم

عاد إلى صمته ، ودعا الطبيب الشرعي روسينيول وكلفه أن يدون الوصف التشريحي حسب أصول

الجراحة

في تلك اللحظة وصل مندوب الأسقف : الأب المحترم كليمان جوزيه الشهير بعلمه في التاريخ والحقوق

واللاهوت والفلسفة وقال إنه باسم الكنيسة المقدسة وباسم البابا المثلث الرحمت يمانع في تشريح الجثة ،

لأنه وصل إلى مسامع الأسقف أن الجثة قد تكون لرجل تناول أسرار الكهنوت ، ولا تبسح

الكنيسة إهراق الدماء مرتين ، لأن في الإهراق الثاني إبطالاً لحزمة الموتى ! فدهش القاضى ولكن

أدبه وكرامة محدثه أزماء الصمت ، ولأنه لم يسبق في سجل التحقيق الجنائي أن أحوجه الأمر إلى

تشريح جثة تلقن صاحبها « سر الكهنوت » وبعد هنية أمر كاتبه لوسيان أن يفتح محضراً

ليثبت أقوال الأب كليمان جوزيه ثم أملى عليه :

« نحن جيران بوتليقان قاضى التحقيق لدى المحكمة العليا بمدينة ليون عاصمة مقاطعة نهر الرون

ثبت ما يأتى :

حضر الأب كليمان جوزيه واحتج على تشريح جثة لرجل مجهول فسألناه :

س - (من القاضى) أليكم في قانون الكنيسة نص صريح يحرم التشريح أو يجعله مكروهاً ؟

ج - (من مندوب الأسقف) إن للبيت حرمة

رئيس المحققين العلماء وقال له :

— سيدى الأب المحترم ، إنا لانوقع على الجثة عقاباً ولا نحاول تعذيباً ولا انتقاماً كما ظننت وظهر من غضبك ، ولكننا ننفذ عن الجثة ماعلق بها من ذرات الشوائب التى لا تدرك بالحس ، ولا ترى بالعين المجردة . فسأل الأب جوزبه .

— وهذا الطبيب المشرح ما عمله ؟ لقد تكاثر الأطباء على جثة ولا ندرى ما يُراد بميت ..

— إنه يبحث فى أسباب القتل التى لها اتصال مباشر بالبدن ، ليحدد علة توقف الحياة ، وتعطيل أدايتها ، أما نحن فنبحث أسباب القتل المستقلة عن الجسد ، أى ما صدر عن قوة خارجة مما لا بد بترك أثر واضحاً لنا مهما خفى على سوانا

ووصف قاضى التحقيق فى محضره المكان والزمان وأمر بالتصوير الضوئى من أعلى وأسفل ، ومن بعض الزوايا الحادة والمنفرجة وختم محضره ، ثم أجّل التحقيق إلى الساعة الثالثة بعد الظهر حتى يُقدم إليه الخبراء تقاريرهم ، وحتى يتمكن رجال الخفية ، وأفراد الشرطة السرية ، « والمباحث » المتنقلة ، والحرس الجمهورى من جمع بعض الأدلة أو القرائن التى تساعد فى كشف الغطاء عن الحقيقة . وعند ما غادر القاضى مكانه كان فى رأسه فكرتان الأولى أن كاتبه لوسيان يعلم أكثر مما دون فى محضره ، والثانية أن الكنيسة تدعى أمومة القتل وهيات أن تدعى باطلاً فى هذا الحادث الرهيب

كان شارع جيراف الذى وجدت به الجثة فى منمرج من شارع بوالو المؤدى إلى « بلاس دى تورو » من اليمين وإلى ميدان « جراند تيار » من الشمال

مندوب الأسقف ، ومن يخرج منه فقد أخرج الكنيسة والبابوية معاً

قاضى التحقيق — ولذا أمرنا نحن قاضى التحقيق جيراربو تليشان حضرة الطبيب روسنيول بأجراء الصفة التشريحية بغير شرط ولا قيد ما عدا الأمر بنقلها إلى مكان آخر قبل أن يؤمن مع النقل إخفاء معالم الجريمة أو تغييرها أو محو الآثار التى يكون من شأنها الاهتداء إلى الحقيقة . فاعترض الطبيب قائلاً :

أظن فى هذا الأمر مخالفة للنظم المتبعة ، لأن فى محافظة البوليس مكاناً خاصاً بالتشريح وإن على مرمر المورج ^(١) متسعاً لجميع الجثث من قتلى وممتحرين .

فقال القاضى : إلى أن يحضر الدكتور لوكار ، فهو وحده يسمح بنقل الجثة إلى حظيرة المورج ، بعد ضربها بالضرب الكافى ^(٢) ، فافتنع الطبيب ورضى بالفحص الظاهر . حتى حضر الدكتور لوكار وأعوانه ، وكانوا مصورين ماهرين وكيميائيين ومحللين وحملات حقائب عازلة ، وأحاض وقناني ، وألواح معدنية وزجاجية وأكياس من المطاط ، وأخرى من جلود الثيران ، فأخذوا قلاماً من أظافر الجثة وآثاراً من صماخ الأذنين ، وإفراز الأنف ، ولعاب الفم ، وشعر الرأس والصدر فى أوعية خاصة ثم وضعوا الجثة فى كيس كبير من الجلد السميك ، وتناول بعض الأعوان قضباناً من المطاط وأخذوا يجلدونها جلداً عنيفاً فى حضرة مندوب الكنيسة الذى بلغ احتجاجه عنان السماء ، فتقدم إليه لوكار

(١) قاعة لعرض الجثث المجهولة

(٢) هذه الطريقة الحديثة لاستنفاس بعض آثار الجناة المادية متبعة فى فرنسا

في داره أو في مطعم ، وبق بمكتبه في « باليه دى جوستيس ^(١) » ينتظر الحوادث ويرقب المفاجآت . فأول ما صنع كان أن أوعز إلى « جرينشار » أمير البصاصين أن يقتنى أثر كاتبه لوسيان ، بعيد خروجه في تمام ساعة الظهيرة ليتغدى ، فهت الجاسوس القضاى وحقق بالقاضى قائلاً :

— أمتحقق ياسيدى القاضى من ضرورة هذا الاقتفاء ؟ إن لوسيان يعرفنى ، وقد نشر شكوكه بغير داع ، ولذا يقتضى الأمر أن أمن فى التنكر فلم يكن من القاضى إلا أن قال له : أسرع ! أيها المغفل قبل أن تفوت الفرصة !

فلم ينتظر جرينشار مسبة أخرى ، وكان رجلاً حقوداً بالفطرة ، ولا سيما أن ساعة الظهر ترحم الشوارع بالنصرين من أعمالهم فيختلط الحابل بالنابل ، وقد تفوته الفرصة حقاً فينطبق عليه الوصف الذى خلعه عليه موسيو جيرار بوتليقان قاضى التحقيق

واتصل القاضى بالأسقفية ، عن طريق التليفون ، وطلب أن يخاطب الأسقف مخاطبة شخصية ، ودهن ألفاظه بألوان التبجيل والاحترام ، وأبدى معاذيره عن مسلكه الذى لم يكن منه بد ، عند ما جبه الندوب فى الصباح ، فقال له الأسقف :

— ان الأسقفية تدرك جيداً وجوب قيامك بملك الذى وراءه سلامة المجتمع ، ولكنها لا تقبل أن تتصدى إرادة الكنيسة ، وتعمل على نشر فضيحة لا تشفى غليل أحد ، وتسبب الى ذكرى القتل الذى كان لا ريب فريسة لغواية الشيطان ، أو ضحية لمؤامرة أعداء الفضيلة .

وقد سمى شارعاً مجازاً لاختناقه بين الشوارع الكبرى ، ولكنه فى الحقيقة زقاق ضيق منحدر أصله حلقة من سلسلة المصاعد الوعرة التى عيبت فى تلال عالية شيدت عليها مدينة ليون كما بنيت رومة على سبعة تلال ولا تزال آكامها ظاهرة فى « فورفير » و « كرواروس » و « رامياردينه » . وكان زقاق « جيراف » يشبه عنق الزرافة ولذا أطلق عليه اسمها ، فهو كالسطر الطموس فى صفحة مكتظة بالأحرف والكلمات ، ولكن على الرغم من ضيقه وانحداره اجتمعت لديه عشرات من النظارة الذين تهيج استطلاعهم أبناء الجرائم ، وكانت على جانبيه بيوت مغلقة ^(٢) يطررها رواد الملاحى فى مختلف الأوقات من الليل والنهار تعرفها الشرطة وتسجلها دفاتر « بوليس الأخلاق » ؛ ولكنها أغمضت أعينها وصمت آذانها عنها ، إذ كانت كل واردة من بنات الهوى سجل العناء والرجس وراء نوافذها المغلقة ، قد تسلمت من إدارة الأمن العام ، تذكرة صفراء تبيح لها مخالطة « الحرفاء » ، وتحتم عليها فحص الطبيب ، وتحذرهما من الاحتباء برجل يعيش من جهودها المحزنة الألفية ، ومن الاشتراك فى جريمة سرقة العشراء (بالانتولاچ) ^(٣) وأن تباع بما تعلمه عنها فكان أول ما بدر إلى ذهن رئيس « البحوث الجنائية » وأعوانه أن يهاجموا تلك البيوت وأن يفتشوها ، لعلهم يفترون بدليل فى إحدى الغرف السوداء التى تخفى وراء جدرانها البؤس والشقاء وبعض معالم الجنايات الخفية

وأبى قاضى التحقيق فى فترة التأجيل أن يتغدى

(١) Maisons closes إسم له فى فرنسا معناه الرهيب

(٢) نوع خبيث من اختلاس المال من الرجال أثناء سكرهم

(٣) قصر العدل ويقولون فى مصر سراى المحكمة ولا سيما المختطة

فقال القاضى متلطفاً :

— ولكن يا سيدى الأسقف هل يمكن التنازل

بأخبارنا عن هويته ، لنحصر جهودنا فى البحث عن
الجنة ، فإننا قبل أن نبذل جهدنا فى هذه السبيل ،
لا بد لنا أن نقف على شخصية القتل .

ألو ! ألو ! ألو !

— سنترال !

— هنا مكتب قاضى التحقيق . كئنا على اتصال

بالأسقف رقم ١٣٠٣٣ ك . مدنية

— الرقم لا يجب ... انتظر ! لقد علقوا

الساعة بعد المحادثة

فابتسم قاضى التحقيق وقال :

— سكوت هو الاعتراف بنفسه !

فى تلك اللحظة دخل صبي صغير من أتباع
جرينشار بحرز مختوم قتلته القاضى يدأ بيد ،
وحيا الصبي وانصرف ، وأسرع القاضى إلى فض
غلاف الحرز فاذا به كناشة صغيرة فى حجم الكف
تحمل تاريخ سنة ١٩٠٨ ، ولكن الكتابة المدونة
فيها لا تتبع التواريخ ، خط دقيق وصفحات ملأى ،
ألوان شتى من المداد ... الأسود والأحمر والأزرق
أحياناً ... نبد لا تينية . وأشعار يونانية ، وآيات من
المهدين القديم والجديد ، أسماء حديثة وأخرى بائدة

— ١ —

ياويلتا من بني آدم وبنات حواء ! إنهم يشغلون
ذهنى دائماً بصورهم التى لا عداد لها . إن أخلاقى
هى الحجاب الحاجز الذى يحول بينى وبينهم ، حتى
عيت وأعيا العقل مجهودى ... بسكال . النبي دانيال
٣ : ١٤ : ٣٤ « ويل لك يا ابن آدم من نفسك ،

واحتكاكها بما وراء الوجود الظاهر والقوالب

والأشخاص » بسكال : العدل ...

— ٢ —

يطيب لى أن أراقب الرضى والمجانين والمساجين
وأشبع عيى ونفسى من ألوانهم وأنواعهم . إن
أحاديثهم ألد وأنفع من حديث الأسماء والمقالات ،
والأحرار ... الأحرار ... هذا الأبله فوجيرار
صاحب معامل الحديد فى حي بوتيو . بسكال : العدل
موجود لأن العناية قرره (أفكار ١٣٤) ولكن
هل هو موجود فى الحقيقة ؟ ...

— ٣ —

دعاني فوجيرار لزيارته . وقدم إلى زوجته
وبناته . وطلب إلى أن أباركهن !! وسألنى رأى فى
راسبوتين وعلاقته بالقيصرة ! ياله من وقح جسور !
إنه أعمى يظن نفسه بصيراً ! ومقهور يحسبه قاهراً ،
ومستعبد يعتقد أنه طليق ! مستعبد لماله وأهله
وشهواته !! أنا وحدى الطليق ، لأننى تحررت من
قيود المال والشهوات ! ولكن من يدري ؟؟

— ٤ —

مدام لابات . شارع جارت نمر ٢٩ . جملة
فصيحة متدنية . تنادىنى « يا أبتاه أنقذنى من مخالب
الذنوب التى تكتنفنى ، منذ فقدت زوجى ، إن حياتى
محفوفة بالسكره ... وأقاربى من الرجال ، حتى
المحارم ، يغازلونى وينصبون لى الشباك ... أنظن
أن ... متعلق بى حتى أغرى خادمتى المعجوز مدام
« بوليه » بالمال فأدخلته إلى مضجعى خفية ...
ليفاجئنى نائمة عارية . وكيف أستغيث ؟ لا وسيلة
إلا التسليم : الطعام والغرام مشكلة الحياة وشغل
الناس الشاغل » وأنا وحدي قنوع فى الأول ،

يقتلني في الصميم ! إن من الإعجاب اكراما ،
وقناطير مقنطرة ! أما الحب فلا دائق ولا ذرة

— ٦ —

الآن عرفت سبب الاضطهاد فقد قلت في
موعظاتي التي تلاها تقرير « المراقبة عن كذب » :
إن المنافقين ينجحون باسم الفضيلة ؛ وباسم الفضيلة
تقترب الآثام . مدام رولان : آه أيتها الحرية ! كم
جريمة تقترب باسمك ؟ آه أيها العدل كم بريء يظلم
باسمك ! ان الثائرين على الأخلاق كالساخطين على
المعتقدات . أحب أن أحارب الشياطين المسترة
وراء النفاق ... بل شيطانا واحدا كامنا في نفسى
لم تخرجه الصلاة ولا المواعظ إلى ...

كان قاضى التحقيق يقرأ مذهلا ، لقد أمسى
من الحقيقة قاب قوسين أو أدنى .. بل هذه هي
الحقيقة نفسها بين يديه . ولكن لوسيان كاتبه
ماشائه في هذه المعمة ؟ في هذه اللحظة دق التليفون :
— ألو ! ألو ! سيدى القاضى بوتليان .. أنا
جرينشار اتكلم ! الفكرة التي وصلت إليك كانت في
حوزة لوسيان . نعم لوسيان كاتب التحقيق كان
يحاول إلقاءها في نهر السين ، فالتقى بأشياء أخرى ،
وسقطت الفكرة على الأرض لفرط ارتباكها ثم سار
في طريقه كالجنون ، فالتقطت الفكرة . أنا الآن في
شارع لاجيو تير ، لوسيان في حانة يحدث امرأة
جميلة ، وقتية ، هل أقبض عليها ؟

— إننا نعرف مسكنه ولا نعرف مسكنها . من

الحكمة أن تقبض عليها في بيتها ، إنهما لا يلبثان
أن يفترقا ، فاتركه واتبعها ..

عزوف عن الثانى ، ولذا ترانى حراً كالطير ، أغرد
على المنابر أيام الأحد والأعياد ، وأنتقل بين مواطن
الآلام وهى أغصانى وأفنانى ثم آوى إلى عُشى وهو
صومعتى . وإن لم يكن فيها أنثى ولا صغار الطير فهى
تحمينى من عبث الحياة ...

— ٥ —

الأسقف ... ذلك البهيم البهيم ! إنه لا يعلم
شيئا ، لقد ضحى بي على مذبح مطامعه . هل أصلح
لمعاصرة المجرمين والمذنبين والمجانين والمرضى ؟ رجل
مثلى طيب القلب عذب اللسان قوى الحججة لا يصلح
إلا للوعظ .. ولكنه يريد أن يسحب منى وظيفتى
بلباقة كهنوتية . لقد أشار في حديثه منى إلى طغيان
سافونارولا^(١) فقد همسوا في أذنه أن تقريراً وصل
إلى مونسنور « ميرى ديلفال » نفسه جاء فيه
(راقب جيميه عن كذب) كلام ملتو غامض .
لأننى أثرت الجدل حول مسألة الخلق القويم . إنها
مسألة شائكة ، استجرت فيها رؤوس الأقلام من
قديم وتبلبت بسببها الألسنة ، من عهد رينان . آه
رينان ! من لى بثقافته واعتداله ! هل كان مؤمناً ؟
هل كان ملحداً ؟ أم إنه ودع العالم وقد ازداد جهلاً ؟
ألم يصل لنيرفا فى الاكروبول ؟ بهتان وضلال !
ألم يزر موضع الميلاد والصلب والقبر المقدس ؟
بماذا عاد إلينا ؟ إنه عاد بالشكوك القاتلة التى صحبته
إلى آخر حياته ! وخسر أخته هنريت فى الصفقة !
أما أنا فلا أخت لى أفقدها ، حتى ولا امرأة
بعيدة أحببته يوماً . كاهن يظهرن لى الاحترام الذى

(١) كاهن دومينيكى عاش فى فلورنسا فى القرن الخامس
عشر وثار على فساد المجتمع فأمرت الكنيسة بإعدامه
وحرقه وتذرية رماده فى نهر ارنو

لأننى شعرت كأن أسلاكاً ذهبية من نور الحب
تجذبني إلى الطقيسى »

وكان الظلام حالكاً . فأشعلت الفتاة عقب شمعة
وأجلستنى على السرير ، فما لديها سواء يصلح مجلساً .
وكانت باهتة ، فسألتنى : هل معك يا أبتاه نقود ،
فيضاً من فضل الصدقات ؟ فإننى كما ترى أحق
الناس بها . فتصنعت الصمم والتعب لأرى كيف
تفعل تلك الأنامل الرقاق بعد أن جذبتنى إلى
سريرها ؟! فكانت برهة سحرية لم أعرف لنتها من
قبل ، فأخرجت كيس النقود — جذع اليتامى
والأرامل — وحللت خيوطه وأفرغته في حجرها
فقبلت يدى ، وانهمرت دموعها . معصية . معصية .
الفرار ! الفرار !... وقد نجوت فعلاً من حباله
الشیطان ...

أنا دنيس بتي جان روسنيول جراح وطبيب
بقسم الطب الشرعى التابع للنائب العام بمحكمة
استئناف ليون العليا أثبت الآتى :

بفحص الجثة ، وجدت الكهل فى العقد الخامس
صحيح الأبصار ، سليم الأحشاء ما عدا القلب فقد
وجد متضخماً . وسبب الوفاة سكتة قلبية أثناء
مجهود لم يتعمده المتوفى وهو فى حالة عجز جنسي تام
لم تسبقه ممارسة

« نحن قاضى التحقيق أمرنا بحفظ القضية
لعدم الجريمة »
وهكذا عاش ومات الأب أرمان چيميه واعظ
كنيسة شارتييه .

محمد لطفي جمعة

أنتى القاضى بساعة التليفون باهتاً .. ومنتصراً
فقد تحققت ظنونه

ودخل دكتور لوكار يحمل تقريره وهو ثمة
التحقيق الدقيق

كان صاحب الجثة فى أحضان امرأة قبيل
وفاته ، وفى إحدى قلايات أظافره ذرات من
مساحيق بيضاء وحمرات معطرة ، آثار زينة المرأة ،
ويدل تقلص أنامل اليد اليسرى على أنه شرع فى
خنقها ، واستمسك اليد اليمنى بأسفل البطن قرينة
ما أصابه بين الحصر عند ما أخفق فى حبه

النتيجة : حالة عجز مصحوبة بجنون الشيخوخة
المبكرة . أما سبب الوفاة فيكشف عنه تشريح الجثة
الذى يقوم زميلى الدكتور روسنيول

الطبيب — إمضاء

عاد القاضى إلى المفكرة :

— ٧ —

كانت فتاة ريانة ، يجرى فى عروقها دم حار
غزير . لقيتنى بأكية بعد خطبة الأحد ، وطلبت
إليها أن تدلنى على بيتها لتبوح لى بحقيقة حالها قبل
أن أبدي لها النصيحة . بيتها . يا أسفاه ! إنه
« طقيسى » ^(١) . خن للحمام ضيق . مظلم فى أعلى
منزل بشارع جيراف اسمها جانيت ديلاييه جرانسير
(من ورتة ألقاب النبلاء !) الكنيسة وذرية
الأشراف تلتقيان فى علية بظاهر السطوح ! دخلت
على جانيت فى الليلة الأولى ، وكان المطر ينهمر ، بعد
أن صعدت سبع طبقات ؛ فمدت يديها الرخصتين
لتأخذ بيدي على درج السلم ، فارتجفت وكدت أقع

(١) بالفرنسية mansarde علية قمة البيوت تؤجر للفقراء